اثمن ما نثرته العيون

﴿ لعبد المسيح حداد ﴾

(رئيس تحرير جريدة السائح)

﴿ عضو في الرابطة القلمية ﴾

ليس من ينثر دموع العين كمن يسح قطرات القلب ·

كانت محطة القطار في احدى مدن سوريا مكتظة بجماهير المودعين لفتى ابن ارملة · وكنت يومئذٍ فتى لا اعرف البكاء الا متأثراً ولهذا كنت بين جماعة من ذكرت غريباً منتظراً ساعة يتحرك القطار لاترك المحطة وارجع الى منزلي مبتعداً عن جماعة الباكين ·

كنت ارى دموع المودعين من اقارب ابن الارملة ومعارف الجميع تبلل المناديل وكانت انّات الصدور وتنهدات القلوب تحدث في النفس انقباضاً اما انا فقد كنت غريباً عن الجمع والمودع منه ولهذا لم تكن العوامل لتخرق قلبي بل كانت تلامسه ملامسة فتثيره قليلاً فلا تلبث ان تذهب

غير تاركة اثراً من الاثار — نسمة لطيفة تمر عَلَى سطح الماء فتلامسه ملامسة ولكنها لا تموجه ·

والسر في ذلك ان عقلي كان ينبئني ان تلك الدموع رخيصة وان تلك العوامل الشجية ادوار تمثيلية كلها تقليد ورثاء فالسر كل السر في الارملة ووحيدها المسافر ·

سألت الذين كانوا حيالي — اين والدة المسافر · اين الارملة التي انشأت وحيدها بماء حياتها · اين من صارعت الايام والليالي لتذود عن فلذة كبدها وتقيه عثرات الدهر ؟

وكنت شيقاً لمشاهدة تلك الارملة وهي في ساعة وداع احب خلق الله اليها · في ساعة فراق من كانت ولا عجب تود فراق الحياة ولا فراقه · فدُللت عليها وتطلعت اليها فاذا بها محاطة بالنسوة الباكيات اما هي فكانت واقفة رافعة الرأس تنظر بوجه وحيدها الواقف عَلَى درج القطار تهمس في اذنه آونة وتبسم بوجهه اخرى اما عيناها فكانتا ناشفتين

والدة المسافر الارملة تفارق حياتها وفلذة كبدها تبتسم ؟ عجباً وما الذي يفرح الارملة في وداع وحيدها ؟

تلك عوامل جديدة لم يسمع بمثلها وذلك درس تلقيته بمدرسة ذلك اليوم وهو لليوم نصب عيني لا انساه — الا وهو ابتسامة ام في الوداع

تحرك القطار فكنت ارى المودعين وايديهم تغطي وجوههم اما الارملة فرأسها مرفوع ويدها تشير للمسافر بالوداع وعَلَى وجهها تلك الابتسامة

الى ان ابتعد القطار ولم يعد طرفا المسافر وامه يلتقيان . عندئذٍ رأيت الارملة قد غمرت رأسها بين يديها وقد تحولت ابتسامتها الى كآبة واخذت عيناها تنثران دموعاً غالية الثمن — اثمن ما نثرته العيون

في تلك اللحظة كانت رؤوس الجميع مرفوعة الى فوق فقد انتهى دور تمثيلها واما رأس الارملة فلم اعد اراه ملياً لانها نقلت الى العربة المعدة لها وهي باكية بكاء يذيب الاكباد

وقد سمعت البعض يتهامسون — لله درها من ارملة حكيمة . لم تشأ ان تحزن قلب وحيدها فدعته يفارقها باسمة ولكنها نثرت دموعها غزيرة بعدما ابتعد .

هذه الدموع — دموع الوالدة — هي اثمن ما نثرته العيون